الزمان - السنة الثانية عشرة العدد 3541 الاثنين 28 من ربيع الاول 1431 هـ 15 من اذار (مارس) 2010م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/12. Issue 3541 Monday 15/3/2010

الف ياء

قـــراءات
كتاب جديد عن الحضارة الانسانية للفكر الاسلامي وعرض لدورية فكر الثقافية ومتابعة لاحدث الاصدارات

اضـــواء
ليث الصندوق يكتب عن ثقافة الإجتثاث والجنابي يكتب عن الحرب في حي الطرب وخاطرة عن مبدع ضائع

تشـــكيل
الخطاط غني العاني الحاصل على جائزة يونسكو يتحدث عن حسبة الخطوط وعلاقتها بالانسان

حارس التبغ لعلي بدر .. تنازع الهويات وهيمنة التاريخانية

صحفي مغمور يسرد فصول الوجع العراقي

عبد الغفار العطوي
البصرة

رواية (حارس التبغ) للروائي العراقي علي بدر التي صدرت طبعتها الأولى عام 2008م عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت هي التي تريد أن تحدد من خلالها الاتجاهات السائدة اليوم في العالم المعاصر، وأثر هذه الاتجاهات على عالمنا الإسلامي والعربي، بحكم إنها صنعت بعين الغرب لهذا العالم، وهذه الصناعة تخطت مديات بعيدة حيث شملت القضايا المهمة والمفاصل الحيوية للعالم الراكد المستسلم الذي درج منذ قرون على التعايش بأنماط معينة الاتجاهات التي ظهرت بعد دخول الغرب أوائل القرن الماضي ! لتحرك ركود ذلك العالم الذي نعيشه على اختلاف معايشنا وتنوع ثقافاتنا ..

، وقد نجح الغرب الاستعماري بها تخطي عقبة وعينا الذي رغب بالحفاظ، فصار القوة التي تحرك مصائرنا، وتحدد المستقبل المفترض لنا، ولعل التاريخ قد وقف متفرجاً على عالمنا وهو يتهاوى، على يد الغرب في عنف، وتتكشف الهويات الساكنة منذ قرون للمجاميع المخططة العرقية والاثنية المكونة له، حيث بدأ اشتغال الغرب على قوة الممارسة التي تؤديها هذه الهويات التي قبلت التنازع بديلاً عن الحوار الهادئ، على صنع العالم وفق تاريخانية معينة، وهذه الرواية تتناول ذلك الجانب العرضي لحدة التنازع التي انطبقت على الآفاق الإنسانية ، ولمزيد من التوضيح حول هذا الأمر نود ذكر ما يلي

أ-تعتمد رواية (حارس التبغ) على نقطتين مهمتين هما

١- وضع التخيل إزاء السرد : وهي نقطة تخدم الاتجاهات التي سيبرزها الكاتب في متن الرواية، وتشكل لحمها وسداها، نظراً لأن الهدف الظاهر هو بيان الأثر الذي تتركه هذه الاتجاهات في مسألة تنازع الهويات ووضع التاريخ المعاصر الذي من المفترض كتابته وفق تلك التنازع الذي يشكل المظهر العام لعصرنا، أما بالنسبة للرواية فإنها لن تتقدم خطوة دون ذلك التفاعل بين التخيل والسرد، سيكون الفصل تاماً بينهما لأن طريقة اشتغال السرد الروائي في (حارس التبغ) يأخذ بالأسباب القائمة على حرفية الاشتغال الروائي، بمعنى ستكون أمام رؤية كاملة في الكتابة الروائية، إضافة إلى ذلك ستجد منطقة ما وراء الرواية، يستعملها الروائي علي بدر خزينة ستراتيجياً لعالمه الذي سيبنيه بمساعدة الاتجاه التاريخاني للقضية العراقية بعد عام 2003م التي واجهت إشكالات عديدة، فيات الأرضية المناسبة لتقبل تلك الإشكالات : كالاحتلال الأمريكي للعراق، وسقوط نظام صدام بسرعة غير متوقعة، وبروز الصراع الدعي/الطائفي بين المكونين الرئيسيين فيه، والحرب الدموية الخفية بينهما على خلفية سياسية ضمنها النظام السابق بغية السيطرة المطلقة على السلطة، الكاتب علي بدر الذي سيأخذنا إلى تاريخ العراق المعاصر منذ قيام الدولة العراقية الحديثة في العشرينيات من القرن الماضي، مروراً بأحداث طوتها الذاكرة العراقية الكليلة عن مآسي اليهود العراقيين الذين كانوا يشكلون أحد المكونات الأساسية للعراق منذ السبي البابلي الذي قام به نبوخذنصر، يحرص كذلك على عدم قطع الصلة بين التخيل، بوصفه قوة مدركة لضرورة السير وراء العقل الذي رسمت لهؤلاء الأبطال الروائيين مصائرهم المأساوية، والسرد الذي اتخذ الاتجاه التاريخاني مشغلاً له، يقلب من خلاله المصائر التي تتحكم بالأبطال المقهورين الذين تعصف بهم الثورات الشعبية، بعيداً عن مسار الحياة التي يريدون اختيارها، بينما تتناغمهم المتزامات انتماءاتهم الهوياتية أصلاً، في عصر بات التنازع على الهويات شغل العالم الشاغل

تسجيل الواقع

ب-الكاتب في هذه الرواية التسجيلية (على اعتبارها تسجيلاً لحياة شخصية أقرب ما تكون إلى الواقع) يوضح لنا إمكانية الهيمنة التاريخية على مقدرات الإنسان، عندما نقرأ ما آل إليه (كمال مدحت) من دوران تاريخي، يشبه دوران الساقية، وهذا النمط من الأفعال يؤكد على استغلال الوقائع التاريخية لحظوظ الناس في مسألة التوافق مع التاريخ العراقي المعاصر لهم، وهذا يعني إننا لا نستطيع اختيار تاريخنا، الروائي علي بدر أكد ذلك الفهم كوننا نعيش اغتراباً التاريخي، أي إننا ندرك الصلة المقطوعة عن القدرة المتاحة لتغيير المصير وهذا ببساطة ما أجاب عليه الكاتب حينما رسم أدوار التحول الهوياتي للموسيقار اليهودي العراقي (كمال مدحت) الذي ستجده في أسماء أخرى وواقعات متباينة، لنخلص إلى إن التاريخ هو الذي يلعب دوراً في رسم مصائر الناس، وعليه ما كان لعلي بدر وهو يسجل سيرة الموسيقار العراقي اليهودي (كمال مدحت) الذي ولد في العراق من عائلة يهودية عراقية، وتمسكه بأرضه ووطنه، ومحاولته البقاء فيه، بل الموت مقتولاً بعد عمر طويل قضاه متمسكاً بترابه، ما كان بمقدوره إقناعنا بصدق هذه الشخصية، لولا الإيمان بقدرة التاريخ على تحقيق ذلك الشرط المؤهل لحياة البطل، أي إن العامل التاريخي قد لعب دوراً مهماً في الإقناع المبكر بأن البطل جاء من عالمنا حياً ! ورحل بعد الأحداث الدامية التي شهدها العراق الأمريكي بعد عام 2003م، فالتاريخ المهيمن في الرواية بشكل خانق لم يدع مجالاً لوصف العمل الروائي بأنه من أعمال ما بعد الحداثة، بل ركن إلى أن يكون التاريخ سالباً له حرية التحرك، لهذا سنطلق على هذه الهيمنة بالتاريخانية، نسبة لبروز العامل التاريخي على الرواية بشكل طاغ

ت-الرواية فوق كل ذلك الوصف، قد سجلت موقفاً إيديولوجياً إزاء العراق الأمريكي، التفاصيل الدقيقة المملة للحياة في العراق المحتل، والمزق طائفياً، ما الذي يحدث في البلد أثناء الاحتلال، كيف يتصرف العراقيون والأمريكيون إزاء بعضهم البعض، في مقابل التشتت الذي وصل إليه الموسيقار اليهودي (يوسف سامي صالح) بعد التحولين القاسيين لشخصيته الشخصية التي تنتمي إلى المكون الشيعي (حيدر سلمان) والشخصية التي تنتمي إلى المكون السني (كمال مدحت) سنفهم لماذا كتب علي بدر روايته على هذا الطراز وفق التصورات التالية

١- الكتابة على هذا الطراز، قد خضعت لاعتبارات عدة منها، إن الروائي قد كتب في نمط الرواية ما بعد الاستعمارية المضادة للسرديات التي تميل إلى تمجيد الغزو الغربي للعالم الشرقي والأفريقي والأمريكي اللاتيني، بوصفه ناشراً للحضارة، أو تلك الروايات الهجينة التي تمجد الإطار الهوياتي، مع استخدام التسجيل والريبورتاجات من باب إضفاء السمة النقدية على الرواية

ب- تعالج الرواية القضايا الساخنة التي تهم الساعة، في عصر العولمة وتفجر وسائل الاتصالات، وخضوع العالم الإنساني لمحنى الاكتشاف السافر لخبايا الناس، وتفرد الغرب بالهيمنة، والانسحاق الروع لهويات الدول المحلية، ومحاولة هذه الدول المقاومة الفكرية والعقائدية، كما إنها تقف أمام هذه القضايا الحافلة بالتمزق والتشرذم لرصد الحالات التي تؤجج الأهلية التي كانت تتطفى

ت- الرواية كتبت بقلم صحفي عراقي مغمور، يقامر كثيراً وله معارف عراقيون مقيمون في بغداد مثلما لديه آخرون خارج العراق، من الصحفيين المقيمين في البلدان المجاورة، أو من المعارضين للنظام السابق من شيوعيين أو إسلاميين، كما إنه يقيم علاقات مشبوهة مع نساء عراقيات وعربيات وغربيات مقيمات في العراق كصحفيات أو مراسلات لقنوات عربية أو أجنبية، وكذلك حينما سافر بعد خروجه من السجن وأصل تلك العلاقات النسائية التي كانت تسير باتجاه عمله كما تصور الرواية، وعقده لصفقات مريبة معهن (وسيتعكس هذا النسق الشيوعي على سلوك بطل الرواية الموسيقار فيما يخص العنصر النسائي) لمصالح سير القضية التي قبل الكتابة عنها، رغم عدم رضاه الا يكتب اسمه، واكتشفي بصفة البلاك رايتر(وهي مهنة متداولة في الغرب بشروط تعسفية)، وهي سحصلة لم يستطع التخلص منها، بل ظلت تطارده إلى آخر نقطة في العراق وهو المطار الدولي، حينما طاردته سيارة البليشيات الطائفية التي وصفها البلاك رايتر في خارج الذي، وكان من المفروض عليه التكتم على ذكر هذه الحادثة الخطيرة، غير أن الكاتب مر لنا ما لم يقدر على إخفائه

ث- والكتابة بهذا الشكل جاءت تحت ظروف تسويقية حرجة، لم يصمد الكاتب إزاء إغرائها، الكتابة عن موضوعات طازجة تهم الرأي العام الغربي المشغول بالشرق وسحر الشرق، وتجارة الأصولية التي يصدرها في عصر العولمة والعنف إضافة إلى وجود ملايين العرب والمسلمين الذين درجوا على كراهية الغرب، وأفعال الغرب البربرية، ونتيجة لتورطهم في بعض التشابكات التي عززت تلك الكراهية، كما لا يخفى على الجميع من إن الكتابة في هذا الموضوع قد جلب ملايين القراء العرب (والعراقيين) الذين وقفوا من مسألة احتلال العراق من قبل الأمريكان عام 2003 م وما حدث بعد ذلك من انهيارات في منظومة الدولة العراقية التي لم تصمد طويلاً أمام ضربات القوة المسلحة الغربية، وزوال الخوف والحماية من قبل العراقيين (الشيعة وأحساسهم بالأمان، والسنة وإدراكهم بضياع السلطة) الكتابة بهذا الاتجاه شجعت هذه الآليين على متابعة التفاصيل الكثيرة التي تأتي بها الأقلام الغربية والعربية، والعراقية عن عالمهم الذي خرج كالعنقاء، من بين الرماد الذي أماله العمل، ونجح علي بدر في هذه الرواية التسجيلية في إشباع نهم القراء، وهو يصف العراق الأمريكي، في المطار الدولي في بغداد، والمنطقة الخضراء، ذات النفوذ القوي، لمتواجد المسؤولين الأمريكيين العسكريين والمدنيين والحكومة العراقية الحالية (على الأقل عام 2006م عندما كانت الرواية في طور الكتابة) ولعل نجاحه في نقل ما يجول في خاطر الإنسان العربي (لأن الرواية تتناغم في أغلب أفكارها مع مواقف العرب إزاء صنع البطل التاريخي، خاصة في عصرنا) هو الذي جعل الرواية تحظى بقبول حسن، من قبل جموع غفيرة من القراء العرب، وهذا يشكل دافعاً في معرفة المزاج العربي الثقافي، وعلاقته بالقراءة

ج- التناول الروائي لحركة المكونات العرقية والإثنية في التاريخ العراقي المعاصر من خلال رؤية ناعمة لتلك الحركة بالاتجاه الذي نعرفه الآن ! أي من بؤرة السكون حيث التعايش السلمي ضمن نسيج مجتمعي واحد متجانس نوعاً ما، إلى تمزق عمودي نتيجة ظهور خلخلة للبنيات الاجتماعية بفعل فاعل، ونشر، مجتمع متناحر متضاد ورخو، شكل ظاهرة جديدة في السرد العراقي (والعربي) ولعبت متغيرات 2003م مفتتحاً لبروز روائيين خاضوا غمار هذه التجربة، سنتناول بعد قليل أثر تلك الدراسة على التنسيق الحاصل في البنية العراقية، وما عكسته الانقلابات العسكرية، والثورات الشعبية، وسقوط أنظمة وصعود أخرى، وتبادل الأدوار بين الحكام والأحزاب، وتناوب المكونات الرئيسية على استخدام السلطة ضد بعضها البعض، مع اتفاقها على اضطهاد الطائفة اليهودية لأسباب دينية وسياسية وأخلاقية وثقافية، كما سنعرف إن الروائيين الجدد قد وضعوا الحرب الخفية بين المكونات العرقية والإثنية في البلد الواحد، وأثر العولمة في تفتيت هذه المكونات في مقدمة اهتماماتهم

أ- قبل قليل توصلنا إلى الخيوط الدقيقة التي حركت الروائي علي بدر تجاه كتابة هذه الرواية، ما كان يرمي إليه من وراء رسم شخصياته التي تعاني أزمات في الحياة طوال تواجدها خلف السرد، أو في السرد، وما بعده، الأزمات التي أوجدتها الظروف التي تعلقت مصائر الأبطال بها مثل الحروب، والثورات الشعبية، والتهجير القسري للمكونات، والتطهير العرقي لبعضها من قبل البعض، وأثر العولمة أخيراً، أو ما ترسب جراء ممارسات الأفراد من مختلف المكونات وآثاروا سخط مكوناتهم، مثلما نرى في حياة الموسيقار العراقي (كمال مدحت) وما جرته سلوكياته من تشبيط في فهم الهدف الذي ظل يتجه إليه، ومن أجل معرفة المزيد حول تنازع الهويات وهيمنة الواقعة التاريخية في رواية (حارس التبغ) تعالوا نتتبع الخطوات التالية

المكونات المسالمة

أولاً-الحديث عن تفاصيل الرواية يلفتنا إلى تشريحها ! لمعرف الخطوات التي سارت عليها في وصولها إلى الغاية المنشودة لها،أي ما نتجت عن حركة المكونات المسالمة التي انتهبت فجأة على عالم متغير، قامت الرواية برصده بنجاح، حيث تقع الرواية (ط١) بـ(355ص) من القطع المتوسط على (أج) ضم الجزء الأول كل ما يخص القضايا الموجستية لكتابة الرواية، كتحضير بيوغرافيا خاصة بالشخصية التي سيكتب عنها، من جهة تدعم مشروع الكتابة، ما دامت متعلقة بشخصية إشكالية أثارت زوبعة من التكهنات، واستدرجت الانتباه لقد، ما لعبته في تاريخ المنطقة العربية عموماً [والعراقية بالأخص] والجهة الداعمة لهذا المشروع تتمثل بالطائفة اليهودية التي كانت تعيش في العراق الملكي قبل حادثة الهرود عام 1948 ـ 1950 م، ومازالت تتطلع إلى أرض الشهود البابلي (أرض السبي القديم) وتشطط الأخبار السياسية والثقافية والدينية التي تعطيها الأمل في العودة، ونجحت في إدخال بعض عناصرها من اليهود المتعاطفين مع القضية اليهودية التي تذهب إلى إن العراق وطن ثان لهم في الجيش الأمريكي أثناء غزوه للعراق عام 2003م تحت مسميات شتى، وصفتها بعض التقارير الإخبارية، والصادر الاستخباراتية الغربية بالصحيحة (يذكر الكاتب على سبيل المثال/وكالة التعاون الصحفي، والآي سي ميديا لند نيوز بأعتبارهما من المؤسسات الصحفية المزوفة التي تعمل بالخفاء، وقد رأسهما هو وفارس حسن، وقاؤهما بيوريس/ ومحصوله على الرسائل التي كان الموسيقار العراقي اليهودي يراسل زوجته اليهودية العراقية التي درست الموسيقى في معهد سدام خضوري للموسيقى بالعراق في الأربعينيات من القرن الماضي، والأستاذة الحاصلة على شهادة الدكتوراه بالعبرية من جامعة تل أبيب فريدة روبين التي هاجر معها إلى إسرائيل/تل أبيب بعد عام 1952 م ومن ثمة سفارقتها مع إبنها منير إلى الأبد إلا عن طريق الرسائل!) كما أحتوى هذا الجزء، على كل ما هو غريب وعجيب من الغامرات النسائية التي خاضها البلاك رايتر، قبل أن يستقر به المقام عند هذه الرواية التي فضل صياغتها على طراز تشبه ما يعيشه هو، فرحة نحسب إن الموسيقار هو صنو البلاك رايتر، إضافة إلى قيام الصحفي بعد سفره مرغماً ومضطراً جراء تعسف نظام صدام إلى التنقل الحر بين عواصم عربية مهمة تشكل حاضنة للمثقفين والعارضين على متابعة المعلومات عن الموسيقار البائس الذي غامر بكل شيء ! فيموت أخيراً على يد إحدى الميليشيات الغامضة في 5 فبراير من عام2006م التي كانت تعيث الفساد في ظل غياب الدولة والقانون، في عالم ظل يزخر بالعطاء الإنساني على الرغم من كل ذلك التهشيم بامتهانه للمكونات المختلفة لكنها المتسامة في البقعة الواحدة منذ القدم!

ثانياً- لم يكتف الكاتب في الجزء الأول بذكر التفاصيل المتعلقة بكتابة سيرة الموسيقار (كمال مدحت) من ناحية التكليف بالمهمة الشاقة والخطرة التي يكتنفها الكثير من المخاطر والغموض ، ويجد المتابع لهذه القضية خيوطاً أخرى متشعبة، تخرج عن السياق المرسوم لها، وذلك بالتعرض لتاريخ منطقة واسعة ومجتمعات متباينة متصارعة، الروائي علي بدر ذهب إلى أبعد من ذلك، نحو المساهمة في رسم ملامح المنطقة بصورة تعكس توجهات معينة تريد أن ترى الانهيار المروع لها، لتقول هاه ـ ها هو المشروع الأمريكي قد فشل! لهذا يعبر، بداية العالم الأمريكي منهالاً وبشعاً، وهو الذي يشغل بعد أن وجد له موطن قدم في حياة العراقيين [خاصة في بغداد/المنطقة الخضراء] صدى واسعاً في العمل الروائي/ فالوصف البذاخ الذي يحرك عالم الرواية ، وهي ترصد بعض الأجزاء، في المنطقة الخضراء/بغداد، يصب في فكرة التشويق الروائي، ناهيك عن تحقيقها لعنصر المباغتة المبشاعة التي يفرضها الاحتلال الأمريكي بأية حال ويعتبر هذا الجزء المرتكز الدقيق للدخول لعالم الرواية بعد ذلك، عبر فترة عصيبة من تاريخ العراق المعاصر عاشها البطل منذ خروج اليهود من العراق الملكي ذي اللون الوردي إلى طلوع الرايات السود والبيارق الخضر من القومين والإسلاميين من اليسار الصاعد واليمين الثائر ـ الخ

ثالثاً- وبعد ذلك، يقدم الكاتب الرواية كمراقب محايد، يكثر الإيهام بواقعية ما يكتب، ويحرص على إعطاء الدليل تلو الدليل، بأن خبير ما يكتب، هو سيرة كل امرئ أدرك ولو متأخراً عدم قدرته على نزع لباسه الذي انطوى عليه قدره، ليضيف إلى الرواية عنصراً آخر يعضد رؤيته وفق النقاط التالية :-

أقام فكرة النازع الذي يصيب الإنسان جراء الحراك الاجتماعي، وظهور قانون البقاء للأصلح، أو شيوع الهوس الشعبي بالانتقام كردة فعل على مس كرامة مجروحة من قبل الأخصي أياً كان انتمائه لقائمها على كونها السبيل الوحيد للخلاص من أزمة تكاد تطيح بوجود المرء، لهذا فكرة التنازع على مساحة الهوية وفاعليتها في عصرنا بدت الأساس الذي لأي إنسان يتخذها غايته وصولاً إلى بر الأمان الذي ما عاد بمقدور أحد نيله ـ وما نشوء المنازعات بين الشعوب الواحدة مع بعضها ومع الآخرين إلا مظهر من مظاهر التنازع على الهويات، من هنا يدرك علي بدر وسواه الآن العمق الستراتيجي الذي تلعبه الهوية في الصراع العولمي، على كل حال وجدت الرواية لها متسعاً ثراً في حقل من حقول الفكر الإنساني، يشتد فيه السجال حول الحفاظ على الوجه الناصع للهوية، ولقد تناولت الرواية وجهاً كالحاً من وجوه الهوية، من عنف الهوية، وتزويعها نحو التدمير التي حصدت أرواح (مسعودة خالة يوسف سامي حرفاً/طاهرة إسماعيل الطباطبائي زوجة حيدر سلمان موتاً بسبب البرد القارص والثلج/جانيت الأرمنية لأنها كانت تعلن صراحة مخالفتها للتقاليد الإسلامية الخ ـ) ومن أجل هذا صارت الهويات حينما تتنازع، إنما على شرط الإزاحة من المركز نحو الهامش، والكاتب في هذا العمل الروائي قد ركب الموجة كغيره من الذين وجدوا في العراق مناخاً مناسباً لرمي شباك التنازع الهوياتي ورأى له أن يرسم حدوداً جدية لهذا التنازع، متأثراً بالشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا من خلال قصائده المترجمة للإنكليزية تحت عنوان (مكان التبغ) وفي قصائد حارس القطيع للشاعر البرتو كايرو، والخروس عبارة عن أغاني لريكاردو ريس، وحارس التبغ ألفارو دي كامبوس (وقد وجدها الكاتب في منزل الموسيقار المقتول في النصور ببغداد بعد زيارته له عندما كلف بالكتابة، وزيارته لمنزل القتيل تمت بصحبة فارس حسن حيث يصف ذلك المشهد بالتمام خاصة فيما يتعلق بالكتبة وطقوس القراءة، ليخلص إلى القول وهنالك كومة من الروايات وضعت على الأرضية، وطاولة قرب الكرسي الذي يجلس عليه على الدوام قرب النافذة والقصائد المختارة ليسوا التي سيعتمد عليها كثيراً في معالجة مسألة تنازع الهويات، وجده لاحاً مع كتاب مذكرات عازف الكمان الفرنسي ستيفان غرابيلي، وكان الكتاب الأول مفتوحاً على قصيدة بعنوان (مكان التبغ)وقد ملأها كمال مدحت بالشروح بقلم الرصاص) والدائر المدني للكاتب بهذا الشاعر لم يكن منطلقاً من تأثر البطل نفسه بالتأكيد، وإن بدا الأمر ملتبساً نوعاً ما، إلا إن كل الحكاية إن العمل الروائي هذا قد كشف لنا لعبة الكاتب ملياً، حيث كان نهج الموسيقار والروائي كفاتاً من نبع واحد، وإن ما أدركه الموسيقار كمال مدحت من حوالي نصف قرن من حرب خفية بين الملل والأديان المتواجدة في بقعة واحدة، وتخوفه من التحرك القومي العنصري بعد صعود النازية في ألمانيا على يد هتلر، هذا الإدراك المبكر جعله يفكر بهذا التنازع، بينما الكاتب علي بدر استغل نفاقم العنف الذي جاء، بعد تصدع المكونات وتزومها الحتمي على النازع من أجل البقاء، على السطح

لذا أختار هذه القصائد بالذات للدخول إلى عالم السيرة الذاتية للموسيقار العراقي كمال مدحت؟! الظاهر من العمل الروائي أن لا دخل للكاتب بهذا الموضوع، لأننا وجدنا البطل صدفة يقرأ مختارات لقصائد مترجمة لبيسوا، وهي تتحدث عن الانقسام الثلاثي في الشخصية الواحدة،كما أشار علي بدر قبل قليل (ص344من الرواية) ولو رجعنا مع الكاتب إلى ص107 لوجدنا العلاقة العميقة التي تجسدها شخصية الموسيقار الثلاثية بالقابل مع شخصيات بيسوا في المختارات (سنتناول هذه العلاقة بين ثلاثية الموسيقار وما يقابلها من شخصيات بيسوا، وانعكاس كل ذلك على التنازع بين المكونات الرئيسية في المجتمع العراقي المفروض أن يعيشه البطل بكل مستوياته) وقد يقول قائل : إن الكاتب علي بدر قد تقصد إيلاء هذه القضية اهتمامه المتزايد وسط ظروف بروز الصراع العالمي بين الرأسمالية والمفقرة، وكان للتمزق العرقي والاثني مكانته في القمة، لأن اختلاق هذا الانقسام الوظيفي في الشخصية الواحدة بما تعني المساحلة أو التصادم الثقافي والاجتماعي يصب في صحب العولمة في العراق، الفضاء المفترض الحاضن للمكونات العرقية والاثنية، تعتبر هذه المكونات عبارة عن تراكمات حضارية عبر التاريخ سادت في فترة من الزمان، وتغلبت على بعضها البعض، فكان العراق اليهودي في السبي البابلي، واستمر العراق المسيحي النسطوري إلى نهاية حكم الإمبراطورية الساسانية تقريباً، وترعرع التشيع في الكوفة أول عاصمة للإسلام بعد تولي الإمام علي بن أبي طالب (ع) الخلافة، ثم انتشر التسنن في العراق بظهور الدولة الإسلامية الرسمية (الأموية والعباسية) وتوالت الأعراق الأخرى على المجيء إلى البلد المكتظ بالتصارع الحضاري، كالتركمان والأرمن الخ ولعلها أي تلك الأعراق قد فضلت التعايش بسلام حتى عصرنا، لتجد من يحرك المياه الآسنة، ويثير حمية الجاهلية لديها، فجاء التنازع بوصفه صراعاً على السلطة السياسية والدينية وتغطية كل ذلك بشيوع حراك ثقافي

اثبات الهوية

رابعاً-وبعد كل ذلك : تبدو الرواية (حارس التبغ) سيرة ذاتية لصراع خفي وشرس، تخوضه هذه المكونات من أجل إثبات هوياتها، استطاع الكاتب توظيفه عبر شخصية سردية، فيها الكثير من الإشكال والغموض والمغامرة، على الرغم من إن هذا التنازع في الشخصية أصلاً لم يكن مدركاً لدى أغلب العراقيين باعتباره مسكوتاً عنه ، فالرواية تطرح نوعاً من التخمين الذي يصلح لتأويل كل شيء فيها، أي في الرواية، وعلى هذا الأساس وجب علينا وضع الاستفهامات التي أثارتها بعين الاعتبار على النحو التالي :-

الرواية تتحدث عن شخصية واحدة، بالتأكيد أثارت زوبعة من التساؤلات قبل الاكتشاف الروع لمأساة جريمة القتل عام 2006م بطريقة غامضة على يد عصابة غير معروفة، في أشد أزمات العراق ازدحاماً بالشبهات، وبالعودة إلى الوراء حيث تكتشف الحقيقة التي حرض الموسيقار العراقي اليهودي الأصل (يوسف سامي صالح المولود عام 1936م ببغداد/حي اليهود) على إخفائها، والقصة معروفة لدينا، وهي تشكل الجزء الثاني للرواية التي كتبها البلاك رايتر لصالح إحدى الجهات، عن تلك العازف المولع بآلة الفيولين، الذي استطاع أن ينزع جلده مرتين، وأن يتوارى وراء شخصيتين، لا تمتان للأولى بصلة إلا لكونها تنتمي إلى شخصية (يوسف سامي صالح)، مع إنهما تتقاطعان معها في نقاط عديدة، يبررها الكاتب بمبررات كثيرة يذكر أهمها، كما سنعرف بعد قليل، فالظروف السياسية والاجتماعية والثقافية قد دفعت بالموسيقار اليهودي إلى تقمص شخصية (حيدر سلمان وهو من مواليد عام 1934م) تلك الشخصية الشيعية العراقية التي تتبع الهوية الشيعية الإيرانية التي جاءت من طهران بعد قيام ثورة تموز عام 1958م، واستقرت في بغداد، حتى التهجير القسري للعراقيين من التبعية الإيرانية أثناء نشوب الحرب العراقية/الإيرانية بين عامي 1980 ـ1988م، لأن هذه الظروف قد أجبرته على خلع ثوب اليهودية بعد الهروب الذي حصل بعد عام الهزيمة العربية أمام إسرائيل 1948م، وإسقاط الجنسية العراقية عنها عن اليهود في كل المنطقة العربية تقريباً (خاصة في العراق)، وبما أن الموسيقار اليهودي لم يتجرأ على البقاء خارج نطاق التنازع النفسي والثقافي (حيث يعتقد جازماً إن العراق هو الحاضنة الحقيقية لوجوده الكوني) فضل العودة إليه مهما كلف الأمر، وهكذا لما رأى الموسيقار إن حياة (يوسف سامي صالح) قد انتهت من أداء مهمتها، لم يفكر سوى بالرجوع إلى الحاضنة ولو على حساب زوجته (فريدة روبين، وولده منير) ليلبس جلد العراقي الشيعي الذي عاش في إيران، وتزوج فيها (طاهرة) إبنة إسماعيل الطباطبائي، وهذه العائلة التي ناسبها عراقية تعمل وتعيش في طهران، أما الشخصية الأخرى التي تنتمي إلى شخصية الموسيقار العراقي فهي (كمال مدحت التي سجلت من مواليد عام 1932م من الموصل وهو تاجر ذهب إلى طهران، وترك زوجته نادية العمري في سوريا/ دمشق لكنه سأت هناك بحادثة دهس) الشخصية المرموقة في العراق بعد عام 1980 م حتى عام 2006م، التي فاقت شهرتها شهرة الأخريين ليس في العراق فحسب،إنما ذاع صيتها في جميع أنحاء المعمورة، من روسيا إلى أمريكا، مروراً بأوربا والدول العربية، واستطاعت أن تمطى بعقابة صدام حسين وصحبته وعطفه، وهذه العناية هي أحد الأسباب الوجيهة التي تشير إلى أن مقتله جاء من قبل الميليشيات المناوئة للنظام السابق في العراق باعتقادها إنه محسوب على نظام صدام، ومن المعتقد إن شخصية (كمال مدحت) التي تعتبر ذات النزعة السنية قد أوحت هي بذلك، أو إنه لما وجد الآخرين يومئون إلى ذلك سكت عن أن ينفي تلك المزاعم، على الرغم إنه قد تزوج سيدة سنية من الموصل توفي زوجها في طهران في حادثة سيارة، وقام أحد أعضاء منظمة يسارية إيرانية تناوئ الشاه آنذاك بتزوير جواز سفر زوج (نادية العمري) وحالما وصل دمشق دبر لقاء بمساعدة صديقته اليسارية (جاكلين مغيرب) للتعرف على (نادية العمري) التي سرعان ما وقعت في غرامه، وحياته وشخصيته الساحرة الجذابة التي لا تقاوم كما سنعرف ذلك لاحقاً، مثلما وقعت قبلها (فريدة روبين) اليهودية التي لم تكن جميلة ، و(طاهرة) الشيعة الإيرانية البارعة الجمال، لكنها الربضة الشاحبة التي لم يشعر نحوها إلا بالشفقة والعطف طوال زواجهما (خاصة عند موتها الناساوي بعد التهجير الذي انتهى بموتها) ولقد فهمنا لاذا وظف الكاتب هذا الازدواج الوظيفي لشخصية الموسيقار في توليفة غريبة ومتشابهة لا تحدث صدفة في التاريخ، لأن هذه المكونات غير متجانسة حققاً على الرغم من تداخلها في وحدة المصير والغايات، لعدة أسباب لا مجال لذكرها الآن. لقد وضع الكاتب هذه الرواية عند مفترق طرق، عندما أوجد مقارنة بين الشخصيات الثلاث في الرواية التي مارست أنشطتها، كلاً على حدة، تحت تأثير القصائد المترجمة للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا (مكان التبغ)

لم يكتف الكاتب في الجزء الأول بذكر التفاصيل المتعلقة بكتابة سيرة الموسيقار (كمال مدحت) من ناحية التكليف بالمهمة الشاقة والخطرة التي يكتنفها الكثير من المخاطر والغموض، ويجد المتابع لهذه القضية خيوطاً أخرى متشعبة، تخرج عن السياق المرسوم لها، وذلك بالتعرض لتاريخ منطقة واسعة ومجتمعات متباينة متصارعة، ....

زاوية

دفاع عن القصة القصيرة الأمريكية

أي.أو. سكوت
ترجمة : نجاح الجبيلي

إن تسمية كاتب امريكي ما باستاذ القصة القصيرة يمكن ان يأخذ في افضل الاحوال كونه إطراءً ضعيفاً ، او في اسوأها كونه إهانة، مماثل لاختيار ما كتب في الصحافة عن روائي طموح – او ،لا سامح الله، نقده- كونه إنجازه الابرز. تبدو القصة القصيرة غالباً شكلاً ادبياً ثانوياً او حتى اثرياً، موح بعمل تلهية وتحذير فني. قد تنجو القصة الجيدة كونها حافزاً للاستجابة النقدية في الصف الدراسي او يمكن تذوقها كتمرين ممتع ، تمرين موسيقي تقني بدلاً من سوناتا او سمفونية.

إن الكاتب الشاب الذي يدخل مكتب محرر او وكيل ادبي بمجموعة من القصص لا يضمن سوى ترحيب بارد مؤسف. وهذا الامر ليس تجارياً. الامثلة العكسية مثل ريموند كارفرRaymond Carver الذي لم يكتب قصة طولها اكثر من دزينة من الصفحات، تميل إلى إثبات القاعدة. كان كارفر الذي مات شاباً عام 1988 يحوز الإطراء بسبب تحفظه واقتصاده اللفظي. كان تصغيرياً (miniaturist) كبيراً تطور عمله في عصر قلق ومقيد. لكن الحكمة التقليدية في الادب الامريكية لها دائماً مثل تلك المواضيع بهذا الحجم إذ ان صائدي الفرائس الكبرى والمصارعين من الوزن الثقيل – خذ خياراً من مجازات الرياضات الرجولية لهمنغواي وميلر- يتجاوزون الرواية الامريكية العظيمة.

لكن هذه الايديولوجية التكبيرية قد تكون خاطئة تماماً، او في الاقل في حاجة ماسة إلى المراجعة.كان الكتاب الامريكان العظماء في القرن التاسع عشر الذين تعد رواياتهم الان مصادر المناهج الدراسية يجيدون كتابة القصة القصيرة. فـ"حكايات بمانترا" لهيرمان ملفيل هي مثيرة وغريبة مثل رواية "موبي ديك". "حكايات ناثانيال هوثورن وسكتشاته اقوى من رواية "الرسالة القرمزية". قصص هنري جيمس ، الخارقة وغيرها، تظهر موهبة الامتياز مع السايكولوجية المتوقعة للاستاذ. والكاتب الاول للقصة الامريكية العظيمة ادغار الان بو امّن خلوده عن طريق جمعه إحساسات داخل بضعة صفحات فكان ذا قدرة اكبر من اغلب معاصريه في حين يكتبون في مجلد.

بقدم الظهور المتزامن تقريباً لثلاث سير ادبية جديدة تحدياً قوياً وشديداً لعادة الاستخفاف بالقصة القصيرة. وشخصيات هذه السير – فلانري اوكونور(Flannery O'conor)وجون جيفر Doland Barthlem-وودونالد بارثلم John Cheever انتجت اعمالاً طويلة ايضاً، لكن مكانتهم تستند على العمل القصير. ولكن هذا العمل ، بغض النظر عن كونه ثانوياً، هو من بين القصص الامريكي الاصلي القوي الذي انتج في النصف الثاني من القرن العشرين.

في الواقع إن اكثرها يجعل الرواية تبدو زائدة. كان المشهد الادبي في الخمسينيات وبداية الستينيات يزخر بالكتاب الجنوبيين والكتاب الروم الكاثوليك الذين اشتغلوا على الفوطي واللامعقول لكن ما من احد اقترب من مزيج الكوميديا الغروتسكية والجدية الاخلاقية والحيوية الفكرية السريعة التي تجري في حكايات اكونور عن الجنوبيين العنيدين. وما من ملحمة مؤلمة منشرة للتعاسة الابوية او لقلق الضواحي يمكن ان يضاهي التبصر او اناقة مثلاً، قصة "السباح" لجيفر وهي حكاية الملك الرائعة عن الاغتراب الوافر.

وبالنسبة إلى بارثلم فهو لم يجلب طاقات الريادة الطبيعية إلى صفحات مجلة "نيويوركر" بل ارتبط إلى حد ما التجريبية ذات القوة العالية مع التسلية متوسطة الثقافة دون ان يضلل كل منها. إذا ما كانت روايات جون بارث وتوماس بنشون الكبيرة ضد الواقعية هي مكائن عملاقة فإن سكتشات بارثلم الات بارعة تستند بصورة مريحة على يديك، وهي ترمي الشرر والصدمات.

إذا ما قرأت هذه القصص المجموع